

ناصر قنديل

حديث الجمعة هذا الأسبوع تحتله الصباحت المعطرة، والتحية لنجمين من صناع الرأي العام في القاهرة والشام، يزينا صفحات «البناء». تحية للدكتور رفعت السيد أحمد رئيس مركز «يافا للدراسات» ورئيس «هيئة دعم المقاومة» في مصر. وتحية للمخرج المبدع نجدة أنزور، لانضمامهما إلى أسرة كتاب «البناء». وفي الحديث بعض من ذكرى نيويورك قبل سنة، ولقاء أوباما-روحاني وخطابهما. وفيه أيضا ما قائلته له في الغرام، وما بقي للرياضيات في الكلام.



ذكر إن تنفع الذكرى

في مثل هذا اليوم قبل سنة، كان اللقاء تحت قبة الأمم المتحدة في نيويورك، وكانت واشنطن وطهران الحدث. واليوم يتكرر المشهد فهل نتذكر؟

خطابان تاريخيان 2013/9/25

كان العالم على موعد أسع مع الخطابين الأهم في الجمعية العامة للأمم المتحدة لكل من الرئيسين الأميركي والإيراني. الرئيس الأميركي بدأ مشوشا وضائعا ولم يتقدم برؤيا متماسكة لنظرة حكومية إلى مسائل النزاع في العالم. فهو مع الحل السلمي للملف النووي الإيراني إذا كان ممكنا. وهو صاحب شروط لحل أزمة سورية. خائف من القاعدة ولا يريد بقاء الأسد، ولا يرى القوة طريقا إلى الحل. أوباما مشوش بعدما رفض الرئيس الإيراني مسرحية لقاء هوليودي مصور للمصافحة والدرشة وتبادل الابتسامات كان يحثها ليقدّم المفاوضات الإيرانية. الأميركية كطريق بلا أفق. بينما إيران تريد أن ينجز التفاهم على السياسات حتى يتم اللقاء. الرئيس الإيراني كان واضحا ومختصرا: اسحبوا من التداول نظرية الحل العسكري على الطاولة، وفي سورية توقفوا عن دعم الإرهاب، واعدوا الأحادية المهيمنة قد انتهت. خطاب القوى الصاعدة في آسيا، والهزيمة الأميركية، كانا مفاجأة. كلمة روحاني بالنيابة عن روسيا والصين وسورية، قالتها إيران بينما أوباما في مزم خلفي ملاصق ينتظره للتحرش بمصافحة أمام الكاميرات. سقوط المواجهة العسكرية فتحت باب السياسة للأقوياء بشروطهم.

قالت له

- قالت له: لماذا تردّد دائما أفعل هذا لأجلك، وأنت تعلم أنّ الكثير من ذلك أطلبه ليكون على صورة رسمتها لك في مخيلتي، فهل يصير جمال لباسك تضحية لأجلي؟ فقال: في الحبّ بعض أتعاء ومبالغة ورغبة بالشعور بالظلم والأسى واللاتوازن في التضحية، لكنّ المهمّ أنه إذا جمعتا ما يمتنع عنه كلّ منّا، أو ما يفعله وينسب إليه حبّه للأخر، وأقمنا المقارنة والقياس، ألا تميل الكفة كثيرا لأحدنا؟ أو يبدو أحدنا مرغما على أن يكون كما يحبّ الأخر أن يراه؟ بينما الأجل أن يكون هو النسخة الأصلية التي يرى فيها الحبيب ما يحبّ أن يراه. لأنها بالأصل كانت كذلك، فعلينا الاختيار أيهما أجمل في الحبّ، وأيها أقرب إلى القلب، وأن نختار دائما للوصول أقصر درب.
- قالت له: هل قياس الحبّ هو حجم القلق على فقدان، أو قياس حجم التعلّق والتضحية للبقاء؟ فقال لها: لا هذه ولا تلك، الحبّ هو حجم ونوع وطريقة واستدامة واستقامة الاهتمام بفقدان وبقاء، فهناك من نشعر أنّ ملاحظتهم تسبّب لنا ضيق التنفس، وهناك من نطلب منهم أن يسبّبوا لنا هذا الضيق، لكنهم يرون أنّنا من يسبّب لهم انقطاع الهواء. فنذكر أنّه مثلما هناك من يعتب علينا بداعي عدم كفاية الاهتمام، هناك من تعتب عليه بالاداعي ذاته. ومثلما نجد العذر في الظروف، نجد غيرنا العذر في الظروف. فهل عرفت من تحيين؟
- قالت: لا، لقد عرفت من تحيين وكفى.

رياضيات في الكلام

الغضب السريع شعور بغصة الخيارات، والرضا السريع خروج من الغصة بإدانتها. السيد المسيح: «لا يمكنكم أن تعبدوا ربين الله والمال» (متى 6: 24؛ لوقا 16: 9-11). لو تنبّه الناس لمعنى القول لأدركوا أنّ القصد استحالة جمع المال ممّن يخاف ربه، لأن جامع المال عابده، وأدركوا أشياء كثيرة في الحياة وفلسفتها، أنّ من يعبد المال يترك الله ولو أقام كل فروضه وأحيا كل طقوسه، مسلما كان أم مسيحيا، والله هنا هو الحق، فمن جمع المال ساوم على الحق، ومن أتبع الحق. والحق مطلق، حق الوطن وحق الناس وحق المظلوم وحق الشريك وحق الصديق وحق الرحم وحق الموتى قبل الأحياء. لا يمكنه منح المال ما يطلب ليعمج، ومنها المبدأ استحالة عبادة ربين، والقصد الحكيم لسيد حكيم من روح الله يستقي الحكمة يقول، لا يمكنكم أن تتناولوا مجددين، ولا يمكنكم أن تطعموا بأولويتين، ولا أن تحلموا بثباتية سعادتين، فكل شيء ثمّنه يدفع من شيء. وكل سعادة تسدّد فاتورتها من سعادة أخرى. خذوا خيارا تمك ولا تتحدّثوا بعدهما عن الحظّ السيء؛ فالفارق كبير بين حظ سيء وقرار خاطئ.

صباحت

سنة صباحت ستة أيام والسابع لسيد لا ينام

بلد آخر، كل ذلك لأن الشعور بالخيانة أشدّ المأ وقسوة من خسارة أشياء نجحها أو نحتاجها، فكيف الشعور بخيانة شركاء الصباح لا بل خيانة الصباح نفسه، الذي ربما وصل وانتظر ولم يكشف عن وجهه لغريك وهو يمنحك وقتا أضافيا لتكون أول الواصلين... ماذا عساهم يشعرون من يخونون أوطانهم كل صباح ومعها يخونون أمهاتهم وأبناءهم وآباءهم ولا يشعرون بالسواد ولا بالكآبة. صباح الخير اللذين يشعرون بالكآبة عندما يبذلون صحيفة الصباح أو يستعجلون باع كعك أو موزّع حليب، ويشعرون بالخيانة والعدا، لأنهم وحدهم يستحقون الصباح، ووحدهم يؤتمنون على الصباح والوطن ويستحقون الصباح والوطن... صباح الخير.

الأردوغان عن «أزدخانة» أو «صرّة مليانة» أو سراي أو من يعطيه للتقاعد ضمانة قبله حمد الضخم وحمد الرفيع يتركون قبل الأوان النعاج والقطيع من يخاصم سورية ويخونها يتقاعد باكراً أو يضع قلب الحرب ملعون الخداع مع الشام في لعنة الحكّام والبلدان كمفعول السّم السريع اسألوا عن ضياع الأولمبياد عن قطر وكيف كان مضمونا وكيف صار في خطر إنه دعاء التيامي والأرامل وأسّر الشهداء والناس الطيبين تنزّلت كلماتهم أقداراً مقدّرة وأفعالا مصبّرة من عليّين وهام بنو سعود يستشعرون ما حلّ بهم يتبرّمون من لعنة أقدارهم يتعلمون أن ليس كل شيء يُباع ويُشترى وأنّ العاقبة على من أفتدى وأنّ أيامهم السوداء تقترب، وأنّ العقوبة تنتظر أفعال الغدر والقتل والخيانة وأنّ الكعبة المشرفة تعرف كيف تنتقم ممّن أساء الأمانة وأنّ خدمة الحرمين الشريفين مسؤولية عن رقاب المسلمين وأعراضهم وأرزاقهم والويل لمن تصرّف بملك الله كمالك زريبة فمن حولها إلى تجارة دماء وانتكح كل محرّمات وبيع المقدّسات ساعته قريبة يهزمون كلّهم ويتقاتل على الحكم أولادهم وتتبدّد قوتهم وثروتهم وأموالهم الانجاس أنجاس أنجاس هم وأنجاس عيالهم صباح الخير لظهر ونبل الظاهرة صباح الخير لأيادي الجيوش الطاهرة من دمشق إلى القاهرة

يكتبون للعرب التاريخ الجديد والوحش الأميركي يتراجع ويصرح ويشيد تركهم في نصف «البيير» وقطع الحبل بهم وها هو يعيد لم تعد سورية الأولية، فتكفيه ادعايات الأزمة المالية وهم في «حيص بيص» صنّاع الزمن الرخيص يُباعون كما يُباع العبيد صباح الخير للغد القريب والبعيد صباح الخير ويقترب ممّا موعد العيد نضحّي في الأضحى بنظام أو حكم أو حكام تأمروا على الشام نؤارة الكون وعاصمة العروبة وقلب الشرق الجديد صباح الخير للحظة اكتشاف الصباح والتفرّج على اكباش حكّام نضحّي بها صبيحة العيد صباح الخير يا أجمل الناس وأحلا الناس وأطيب الناس

فتلقني عليه السلام ويرد عليك الكلام. وحتى الصباحت التي تلقى عليك الآن ولم تترك عينيك بعد لترها بوضوح، فتصلك مشوشة رمادية فتحسّ بعضها يقول صباح الخير أيها الخائن لقد تأخرت. والشعور بالخيانة والوفاء ليس في الحب وحده، فقد ذمّن على علاقات عشق من نوع آخر كعمل سيارتنا بالوقود من محطة تعبئة عينها، فنغامر كثيرا بالسير إليها ووقودنا يكاد ينفد كي لا يملكتنا سواد الشعور بكآبة الخيانة. وكم تنهرب من نداءات داخلنا لقصّ شعرنا في فندق يفرينا صالون الحلاقة فيه، فنقول وماذا نقول لحلاقنا، أو قد نخترع حكاية نوبة وجع شديد نرويها لطبيب أسناننا ونحن نتوقع سؤاله الحائق أه مشغتل فيهن، لنرد لا والله بس اضطريت نوبة لا تحتل في

صباح الخير للاتجاه الذي صار واضحا وشديد الثبات صباح الخير لطريق التغييرات الكبيرة يُظهر من الآن ما هو آت صباح الخير لتجاوز اللحظة الخطيرة في قلب الحرب لمنعطف يغيّر المسار والدرب للحظة تشارك العقل والقلب في اختطاف اللحظة وتسييرها في إمساك التداعيات والتحكّم بمسيرها في التقاط الفرصة والتمسك بالسيطرة على مسار الحرب وقد دقّ نفيها في إدراك نقاط القوة والضعف وإدراك معنى القيادة في رسم الخطوط الحمراء حول السيادة صباح الخير للمرونة في تقييم معاني القوة المضافة ورسم لوحة التوازنات وتغيير قانون الحرب وأعرافه وإتقان استخدام التلازم بين قيمة كلّ سلاح وكيف يكون التصرف الذكي عبقريا لأمعا وكيف يجبر الآخرين على الفرار كيف تتحوّل المجابهة الافتراضية إلى انتصارات افتراضية وكيف تُشعب مصاص الدماء بدم خنزير وجيفة وتتركه يزهو بإنجازة الوهمي وتحقق عليه الانتصارات النظيفة هذا مضمون ما جرى خلال شهر أيلول هذه حقيقة ما انبرى من تفاوض وما أنتج من حلول كيف تشبّت حلف الحرب كأصابع سبأ كيف يصوغ القائد قراره وكيف يُصاغ النيا

ها هي الحصيلة أمام العيون سورية منيعة والله يحمي ويصون وجيش تشرين حاضر ناصر في كلّ ميدان وكلّ ساح يداوي بالنار والسلاح وتتآكل الجماعات المموّلة والمسلّحة وتنهب لحم بعضها من يفرز نابه في الآخر ومن يجد كتلة لحمه ككلب بعضها والناس تراهم يتفتتون ويتآكلون ويتشاتمون إلى جهنم وبئس المصير ولسان حال الناس ناب كلب بجلد خنزير وها هو أردوغان التائه بين «حانا ومانا» ويندب مع إخوانه من مصر إلى اسطنبول كيف ضاعت لحانا وضاع الحكم وضاعت الإخوان وصارت مضرب المثل في أسرع حزب يعاقب على الصلابة والخيانة بعد قرن من الانتظار، وقد وصل ولم يعرف كيف يحتفظ بمكانة، وكيف يكون كما توهم وحلم وأدعى سيد عصره وزمانه يبحث

تفتحت وردة هذا الصباح على عطر فريد، و تمايلت أعضانها لعشق لم يولد بعد، فهي لا تفوح عطرا إلا لتبوح سزا، وتفتح كل برعم جديد عشق جديد، فقلت يا ورد ما الخير، حتى عبق الاحمر النقي فيك واخنتق، أهو عشق سره في خطر، أم هو سرّك أنت أيها الصباح، قرّرت أن تصير عاشقا لا أن تكفني بتدوين سيرة العشاق. هل جربت الانتظار تحت المطر؟ وهل تذوقت لوعة المشتاق؟ هل دمت عينك لسماع وقع أقدام الحبيب؟ أو توشّج خدك كالتفاح، وخجل من التتصت عليك فغاب القمر؟ قال الصباح عاشق أنا ولا أخشى في العشق أن الأم، وأريده جهرا أمام الأنام، وأن أبقي لعشقه لو أضجرتكم بما تبقى من الأيام، أن أبقي صاحبيا لا أنام، فيضيع ليكم بنهاركم لأنني الصباح، ومعشوقي ليس ليلا ولا شمسا ولا قمر، كي تفرحوا بوصولنا، فقد ضاعت انتظامات أيامكم إن عشقت بين البشر، وصار معشوقي اسمه عشق الصباح، فله تزيّن وتعطر وتبارك السلام، وله أعلن عشقي وأنا الصباح، فلا تغاروا من جبينه وعيونه وتبسّم الثغر وإشهار الكلام، وإعلان الحرب والسلام، فالعشق خلق على يديه، ولابتسامته شفثني وهو يقول نعم، فكيف إن قال لا وابتسم؟ صباح الخير يا سيد... صباحكم خير بإشراقه السيد، فالشمس اليوم تعتذر، والصباح تجمد في ساعة الوقت... وما زال.

● صباحاتنا هي نحن، فالصباح المشمس قد نراه مشرقا مضيئا أو نقول صباح جاف وحرار. والصباح الغائم قد نراه دفاء المطر وعشق رائحة التراب. أو نصفه بالقول صباح عصيف وصقيع. وصباح المطر والتلوج قد يكون موسم الخير المتدفق الآتي من نبع الصباح. أو يصير القدر القاسي المنطلق مع طلوع الصباح، لذلك نمنح الصباح بعضا من دواخلنا، فنمدح الصباح أو نهجوه، ونحب الصباح أو نراه ثقيل الظل. هكذا ببساطة تتسلل رائحة البن كحبل نعس موصول لا يريد أن يستيقظ، أو كهبوب رياح الخماسين لتنهرا تنكيرا بموعد العمل. فالبن هو نفسه والصباح نفسه وفيروز لم تتغير، بل نحن من تتغير. أما أنا فلدي من الدفء لصباحتنا بأصواتكم الخضراء وقلوبكم المحبة الطيبة، ولدي من الحب، ولدي من إشراقات النفاؤل والأمل والثقة بالغد الأجل، ما يكفي لصباحت مئة سنة قادمة. فمرة أرى الغيم كنزة صوف صنعتها أم بخيوط الضوء خيطا خيطا. ومرة أراه سهوة جواد لعاشقين، ومرة غلالة مطر توشك أن تهطل في حضني دفعة واحدة، ككوم حنطة مذهب يعلن موسم القطاف، وكثيرا ما أراه تردد الانتقاء بين الأبيض والأسود، وتلعثم الاعتراف بالتوزع في الخيارات الكبرى بين مجددين ورببين وقلبيين، فأجد من الغيم نفسه عدرا للمترددين والمتلعثمين، لأن الصبح قريب... يرويه بعيدا ونراه قريبا... ليس الصبح بغيري؟

● الدخول في الصباح وقد توضع وارتاح يشعر بالغرابة، فقد فاتك قطار انتظار الضوء الاول والقبلة الاولى، وأنت كعاشق زوجة صديق العمر، خجول من أعين الحضور ترمك من تحت النظارات السمكة لتسالك أين كنت. يكفي الإحساس بالحشود بدلا من وحشة الوحدة لتعرف قيمة الاستئثار والتفرد والتميز، فأنت هنا تسعى لتجد لنفسك مقعدا في محطة قطار ملأى بالركاب، فقد طلع الصباح على غريك قبلك واستأثر به وحيدا يداعب شعيرات ضوءه، يرفع خصلتها الاولى عن طرف عينه، وأنت من أنت، ها أنت مجرد ضوء أخضر، والأضواء الخضراء تتفع من كل اتجاه، وضجيج المنادين يطغى على صوت فيروز لما تلتقي الصباح في ظل شجرة أو خلف صخرة ويدك على الزناد